بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدّمة الطبعة الإنجليزية

لم يكن في تقديري أن أقدم «الرسالة الخالدة» ككتاب، وإنما قصدت من الأحاديث الأصلية التي قدمتها في هذا الموضوع أن أوضح للمسلمين بعضًا من مبادئ مجتمعهم، وأصول عقيدتهم وشريعتهم السماوية. ولم يكن من قصدي بحال أن أدافع عن الإسلام أو أبشّر به لغير المسلمين.

* * *

وعن الإسلام، كتب مؤرخ مسيحي يقول: «الإسلام ثقافة ودين معًا، وقلما يمكن تصور قيام الثقافة فيه بمعزل عن الدين».

ونتيجة لهذه الحقيقة، فإن المسلمين إذا فقدوا دينهم، فإنهم يفقدون معه ثقافتهم، ويتردّون بالتالى إلى انحلال مجتمعهم.

ويزداد الأمر بالنسبة للشعب العربي الذي هو بذاته من صنع الثقافة الإسلامية، فإنه خلال عملية الانحلال الحتمية هذه يفقد مقومات وجوده، وعناصر كيانه كأمة.

* * *

والقرآن كثيرًا ما ينص على الأصل المشترك بين الإسلام وبين كل من المسيحية واليهودية، الأمر الذي يتيح للأديان الثلاثة لقاء على أرض مشتركة.

وفي القرن العشرين، أخذت أوروبا الغربية والشرقية معًا تفقد تدريجيًّا ارتباطها بالدين الذي ورثته من القرون السابقة، وأصابها التيه والإعجاب بمنجزاتها العملية ونجاحها التكنولوچي.

واليوم، صار جانب كبير من العالم يمجد صورته ويعبد خياله، وتتشابه الاشتراكية الماركسية والرأسمالية الغربية في خلق طقوس وإقامة شعائر للعقائد والفلسفات المادية الجديدة في كل من الغرب والشرق على حد سواء.

وإله العالم، الذي هو إله اليهود والنصارى والمسلمين ورب العالمين جميعًا، كأنما يراد إنزاله عن

عرشه من أجل وثنية جديدة إلهها الذي يركعون له ويقدمون له القرابين، هو ما يجسدونه ويمجدونه في هذه النظريات والعقائد المادية الجديدة.

وعلى الرغم من الشد والجذب اللذين يتعرض لهما المسلمون من كل من الغرب والشرق، فإنهم لا يزالون يترددون ويرتابون، ويكرهون أن يشاركوا في تمجيد الأوثان والعقائد المادية.

حقًّا إن فريقًا من قومنا يستوحون فكرهم وسلوكهم من الفلسفات المادية وعقائدها وشرائعها، إلا أن الأغلبية الكبرى من المسلمين في أفريقيا وآسيا لا يزالون في قلق وحيرة من أمرهم؛ ذلك لأنهم يدركون ويعرفون منذ عهد بعيد أن لهم عقيدة وشريعة سماوية، ومجتمعًا ومبادئ... تدعو جميعها إلى دولة ليست علمانية فقط ولا دينية فقط، بل جامعة ومحققة لصالح دينهم ودنياهم معًا، وعلى أية حال فليست استبدادية أو غوغائية.

فالمجتمع الإسلامي ـ كما يدعو له الإسلام ـ يقوم على أساس حرية الفرد، والمساواة بين الناس، وهو في حقيقته وجوهره مجتمع حر غير طبقي، وانعدام الطبقية فيه ليس على أساس نظرية اقتصادية أو نظرة مادية، وإنما على أساس أشمل وأسلم، أساس شريعة الإخاء والمساواة بين الناس، ورفض الاعتراف بامتياز أو فضل إلا من خلال التقوى، والعمل الصالح لخير الفرد والجماعة، والامتثال لشريعة الله القائمة على مبادئ عالمية إنسانية ديمقراطية.

هذا، وليس فيما يدعو إليه الشرق أو الغرب جديد على المسلمين؛ فتحكيم العقل والمصلحة أمر ضروري ومطلوب حتى في إقرار عقائدهم وأحكام شريعتهم، ومن ثمّ كان الاجتهاد أحد المصادر الأربعة للتشريع عندهم.

ولذلك فالمسلمون كثيرًا ما يأخذهم العجب عندما تساق إليهم المذاهب المادية الحديثة، ويقال لهم إنها ثمرة علم حديث وحضارة حديثة، ويسألون أنفسهم عم إذا كان ضروريًّا أن ينصرفوا عن خالق الكون، ليشاركوا في ثمار علم حديث وحضارة حديثة؟.

أيجب عليهم أن ينكروا أنبياءهم ورسلهم الذين أحبوهم وآمنوا برسالتهم، وأن يتنكروا لثقافتهم السمحة ومجتمعهم الإنساني وحياتهم المطمئنة، وأن يتخلوا عما يدعوهم إليه دينهم وتحضهم عليه شريعتهم المتكاملة من تكافل وتضامن وعدل ورحمة وإخاء ومساواة وعمل صالح وخير مشترك ينعمون به هم وأسرهم ومجتمعهم... أيجب عليهم كل ذلك من أجل أن يشاركوا في الاندفاع العام نحو مجتمعات منكرة للخالق كما في الشرق والغرب، ومن أجل أن يكونوا بالتالي أهلًا لما تعدهم به وما تزينّه لهم هذه المذاهب المادية الحديثة؟!.

وهم يتساءلون... أئذا لم ينصرفوا عن خالقهم ويكفروا به، وإذا لم ينكروا أنبياءهم ورسلهم ويتنكروا لعقيدتهم وثقافتهم ومجتمعهم، وإذا لم يتخلوا عما يدعوهم إليه دينهم وتحضهم عليه شريعتهم، ألا يحق لهم أن يقرروا ما يصلح لهم من «نظام للأجور»، وما يتسنى لهم من «مستوى معيشة مرتفع»؟؟.. وهل ينتفي حقهم في أن يقيموا المجتمع المتكافل المتضامن الذي يسوده العدل والإخاء والمساواة، المجتمع الذي لا طبقية فيه.. والذي يدعوهم إليه دينهم؟.

هذه بعض الأسئلة التى تشغل بالهم، وتقلق المفكرين والمسئولين بين السبعمائة مليون مسلم من مختلف الأجناس والشعوب.

* * *

والإسلام يختلف عن اليهودية في كونه يخضع معتنقيه لله رب العالمين جميعًا، فليس بين المسلمين وبين الله عقد خاص أو امتياز خاص بأنهم شعبه المختار.

وهو لا يشارك المسيحية القول بأن «ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

وهو كذلك يختلف عن الديانات الأخرى كالبوذية والهندوكية.

والمسلمون الذين يشاركون الأديان الأخرى، وخاصة اليهودية والمسيحية، في كثير من العقائد والشرائع، لا يشاركون إلا بقدر في بعض ما تدعو إليه المذاهب المادية الحديثة، التي تنحصر شعائر الحياة وغاياتها لديها في نظرية اقتصادية ونظرة مادية.

* * *

فالإسلام عقيدة وشريعة، هو دين وثقافة وأسلوب حياة، هو أمة ودولة لها شريعتها المتكاملة والمتطورة لتدبير شئون هذه الدنيا، والتجاوب مع حاجات الإنسان؛ لكي يحيا حياة إنسانية كريمة خاضعة لسيادة الخالق وحده.

هو دين ودنيا، دنيا تعمر وتقوم على ما يبسطه لها الدين من إيمان وتقوى وعمل صالح لخير الفرد والجماعة، ومن مبادئ وقوانين، ومن مجتمع متكافل متضامن ودولة على نحو ما أسلفنا.

وهذه الدنيا التى يطالب الدين بأن تعمر أفضل ما يكون العمران، وبأن تكون الحياة فيها أكرم ما تكون الحياة، ليست مع ذلك إلا مقدمة ومعبرًا لحياة أخرى خالدة، فقد جاء في التنزيل:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وفي القول المأثور «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا».

* * *

من كل ذلك فإن أمة الإسلام التي هي أمة واحدة: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢] ترفض أن تلقي جانبًا ثقافتها وعقيدتها وشريعتها المتكاملة والتي لا تقبل التجزئة؛ لكي تجري وراء نظام قاصر ومحدود سياسيًّا كان أم اقتصاديًّا.

فالنظم الإسلامية فريدة ومتميزة بشمولها وبأصولها المتكاملة، ولذا فهي لا يمكن أن تدخل في مساومات وتنازلات، بل تقف ثابتة تطالب بتقوى الإنسان وحريته وكرامته، وبقيام الأسرة المتكافلة فيما بينها المسئولة عن كل فرد فيها، وقيام المجتمع المتضامن الذي يسوده الإيثار والإخاء والمساواة، والعدل والرحمة والإنسانية، والعمل الصالح والخير المشترك.. المجتمع اللاطبقي.. مجتمع الشركاء المتساوين، الذي يقوم على فلسفة سليمة شاملة كاملة!

* * *

ومع أن هذا الكتاب «الرسالة الخالدة» لم يلتزم بالأسلوب الأكاديمي في طريقة بحثه وعرضه، فإنه محاولة جادة لإظهار وسائل الإسلام في حل مشكلات عصرنا الحاضر.

ولقد نشر الكتاب أولًا باللغة العربية عام ١٩٤٦، ثم أعيد نشره بها مرتين، وكذلك ترجم ونشر بفضل أساتذة متخصصين وهيئات مسئولة في عدة دول، وبعدة لغات في الدول الإسلامية.

وقد أضفت إلى طبعته العربية الثانية فصلًا عن الدولة الإسلامية ومقوماتها، كذلك أضفت إلى هذه الترجمة الإنجليزية فصلًا عن حياة الرسول ﷺ، وبعض تعليقات وحواشٍ تفسيرية.

ومهما يكن من شأن الكتاب، فليس لدينا منذ نشر أول مرة حتى اليوم ما يشير إلى وجود معارضة أو خلاف حول معالجة أي موضوع من موضوعاته من قِبل فقهاء المسلمين وعلمائهم في جميع بلدان العالم الإسلامي.

نيويورك - يناير ١٩٦٤

عبد الرحمن عزام

* * *

مُقَدّمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفاهم لحمل رسالته وأداء أمانته.

إن هذا الكتاب وليد المصادفة، فلم يكن تأليفه مقصودًا، وإنما دعا إلى تناول موضوعاته حالةُ الشذوذ والاضطراب التي سادت العالم أثناء الحرب الأخيرة، والرغبة في الكشف عن أسباب هذا الاضطراب العالميّ، ومحاولة إيجاد علاج له بعد أن تبين أن هذا العلاج غير ميسور في هدي الدعاوى والمبادئ السارية في هذا القرن؛ والتي أوحت بها المدنية المادية الحديثة.

فكلما قلّبنا الرأي في هذه الدعاوى، وسايرنا تنفيذها الواقعيّ في أوروبا وأمريكا، ازداد الشك في نفوسنا، وظهر عجز هذه الدعاوى عن حل المعضلة وعن وفائها بحاجة الناس، وتَوالي الحروب المدمرة، وتذَبْذُب الأقوام بين هذه الدعاوى أكبر شاهد على ذلك، فلا بد إذًا من النظر بجدّ لالتماس الهدى في غيرها، فهل هو في الرسالة الخالدة التي تعَاقَبَ رسل الله على الدعوة إليها، وجاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد؟ ذلك ما يريد هذا الكتاب الكشف عنه.

وإذا نظرنا في الأديان السماوية جميعها نجدها تعبر عن حقيقة واحدة مهما تباينت الأشكال والأوضاع، أساسها الإيمان والإحسان، وهذا المعنى واضح في القرآن الكريم في الآيات التالية وأمثالها:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾[البقرة: ١٣٦]، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ... ﴾[الحج: ٧٨]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ﴾[البقرة: ٦٢].

فالآيتان الأولى والثانية اعتبرتا أتْباعَ هذه الرسالة الخالدة مسلمين، سواء أجاءوا بعد محمد أم قبله، والآية الثالثة جمعت الناس في رحمة الله على أساس الإيمان والعمل الصالح؛ فرسالة الله إذًا في نظر المسلمين واحدة يتتابع على حملها الرسُلُ والأقوام.

والشريعة المحمدية كنظام عالميّ هي آخر تطور لهذه الرسالة، وهذا الكتاب هو محاولة متواضعة

لإيجاد حل لمشكلات هذا العالم على ضوئها، وهو أيضًا محاولة لبيان أسس الدعوة المحمدية في السياسة والاجتماع، والحرب والسلم، والعلاقات بين الدول والشعوب والطبقات والأفراد، وبيان حاجة الحضارة إلى سَنَدٍ من القوى الروحية والمعنوية يمسكها ويوجّهها للخير العام، ويَحُدُّ من حوافز السيطرة والأَثَرَة والظهور.

والعَرْض الواضح فى بعض النواحي لوجهة النظر الإسلامية إنما قصد به إلى التعاون والقُرْبَى لا التنابذ والتفرقة، وأن يجد النشء الجديد المتعطش إلى المعرفة والطالبُ للهدى، من المسلمين وغير المسلمين، مادةً للتفكير وسبيلًا إلى رأْي عالَمِيّ مستقيم بعد هذه الحروب المدمرة التي أثارت اضطرابًا لا نظير له، التبس فيه الحق بالبَاطل.

وقد شرّف الله العرب بأن جعل منهم آخر رسله، واستكمل فيهم رسالته الخالدة، فحمّلهم الأمانة، وعليهم أن يكونوا المثَل والقدوة في سعة الصدر والنَّصَفة والعدل والإخاء وحب السِلم.

وإني لأرجو أن يكون الجيل الناشئ من العرب أهلًا لحمل هذه الرسالة، يمدون الحضارة والعِلْم بالسَّنَد الروحيّ الذي لا بد منه لعالمٍ جديد متضامن متعاون على تثمير خيرات الأرض، مستظل بلواء الحق والعدل، نافر من استخدام القوة، متجهٍ نحو دولة عالمية واحدة تباركها يد الله ويرعاها رضاه.

القاهرة ـ سبتمبر ١٩٤٦

عبد الرحمن عزام

* * *